المباحث النّحويّة في منشور الهداية لعبد الكريم الفكّون القسنطيني

Grammar lessons in Manchor El–Hidaya By Abd al-Karim al-Fakoun

شارف محمّد[1]

[1] **جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر) moh.charef@univ-adrar.edu.dz**

تاريخ الاستلام: 2021/03/20 تاريخ القبول: 2021/08/31 تاريخ النشر: 2021/12/23

ملخص:

من الشّخصيّات المعروفة في قسنطينة في القرن السّابع عشر، عبد الكريم الفكّون، وهو من وجهاء المدينة، كانت له علاقات طيّبة مع الحكّام العثمانيّين، وقد استطاع بذكائه وعلمه أن يكسب احترام الجميع، وقد ألّف كتابا سمّاه منشور الهداية، فضح فيه بعض الممارسات التي تقع في خانة الدّجل والشّعوذة وادّعاء العلم والولاية، كان يحضر مجالس العلماء بالمدرسة التي كان يشرف عليها والده، وكان من بين هؤلاء محمّد بن راشد الزّواوي الذي يسمّيه الفكّون صاحبنا، ومحمّد التّواتي الذي يسمّيه (شيخنا) وقد كان لهذين العلمين دور بارز في ميل الفكّون للنّحو بعدما كان يجهل مباحثه وشواهده، وهناك عوامل أخرى منها على سبيل المثال ما ذكره بخصوص رؤيا جدّه وتفسيرها بكونها إذن في الاشتغال بالنّحو، إضافة إلى تلك الأسئلة التي كانت تحرجه وهو في حداثة سنّه حول بعض المسائل النّحويّة.

كلمات مفتاحية: الفكّون، النّحو، الزّواوي، ابن عطيّة، الإعراب.

Abstract:

One of the well-know personalities in Constantine in the seventeenth century, Abd al-Karim al-Fakoun, one of the notables of the city, had good relations with the Ottoman rulers, and with his intelligence and knowledge he was able to win the respect of everyone, and he wrote a book called the publication al-Hidaya, in which he exposed some of the practices that occur

المرسل المؤلف: شارف محمد.

in The field of charlatanism and sorcery and claiming knowledge and guardianship. He used to attend councils of scholars in the school that his father supervised, and among them was Muhammad bin Rashid Al-Zawawi, whom Al-Fakkon calls our friend, and Muhammad Al-Tawati, whom he calls (our Sheikh). For example, what he mentioned about the vision of his grandfather and its interpretation as being thus a work in grammar, in addition to those questions that were embarrassing him while he was in his youth about some grammatical issues.

Keywords: al-Fakoun; **Grammar**; Al-Zawawi; Ibn Atiya; Parsing.

1. مقدمة:

عبد الكريم الفكّون واحد من الشّخصيّات التي لعبت دوراً بارزاً في الحياة العلميّة والثّقافية بالجزائر في العهد العثماني، لأنّه استطاع بفضل سمعة عائلته كسب احترام الحكّام من الأتراك من جهة، وعامّة أهل قسنطينة من جهة أخرى، فهو حفيد عبد الكريم الجدّ، وقد ورث عن عائلته جاها وأملاكا، بل إنّه ورث حتّى إمارة ركب الحجّ، وهي وظيفة ساعدته على الحفاظ على الاحترام المذكور، وقد كان حريصاً على تفقّد إقامة الطّلبة في زاوية العائلة، كما أنّه كان يتردّد قبل ذلك على مجالس العلم (في حياة والده)، ومن أسلافه عمّ أبيه يحي الفكّون، الذي كان إماماً بجامع الزّيتونة، وقاسم الفكّون، الذي تولّى الإمامة بجامع البلاط بتونس، قبل تولّيه قضاء قسنطينة.

وقد ألّف الفكّون كتابه المعروف (منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، وهو كتاب متشعّب المضامين، لا يكاد القارئ يلم بما يحويه من آراء في النّاس والحياة، ومن سيرة علميّة للرّجل، فضلاً عن موضوعه الرّئيس، وهو كشف المدّعين للعلم والولاية، والمبتدعة من أشباه العلماء، الذين حرص على فضح أعمالهم الدّنيئة، وتشويههم لصورة العلم والدّين، باتّخاذ طقوس لا تمتّ إلى الدّين بصلة، كما أنّ فيه قضايا أدبيّة ونحويّة لا تخفى على القارئ الحصيف.

غير أنّ ما يهمّنا في هذه الدّراسة هو الحديث عن الأسباب التي كانت وراء تعلّق الفكّون بالنّحو، سيما وأنّه كان يحضر مجالس العلماء بالمدرسة التي كان يشرف عليها والده، وكان من بين هؤلاء محمّد بن راشد الزّواوي الذي يسمّيه الفكّون صاحبنا، ومحمّد التّواتي الذي يسمّيه (شيخنا) وقد كان لهذين العلمين

دور بارز في ميل الفكّون للنّحو بعدما كان يجهل مباحثه وشواهده، وهناك عوامل أخرى منها على سبيل المثال ما ذكره بخصوص رؤيا جدّه وتفسيرها بكونها إذن في الاشتغال بالنّحو، إضافة إلى تلك الأسئلة التي كانت تحرجه وهو في حداثة سنّه حول بعض المسائل النّحويّة، وانطلاقا من ذلك تتبلور الإشكالية التّالية: ما الدّوافع والمسائل التي أدّت إلى ميل الفكّون للنّحو ؟

إجابة على ذلك تمّ تصميم هيكل البحث وفق ما يلي:

2. الفكّون، ترجمته ومؤلّفاته

1.2 ترجمة الفكّون:

عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القسمطيني أحد أفراد عائلة الفكون، وهي من العائلات المشهورة في قسنطينة، مثلها مثل عائلات كابن باديس وآل نعمون وآل آفوناس وآل عبد المؤمن، وهو من أعلام القرن الحادي عشر، ولد عبد الكريم الفكون في قسنطينة سنة 988، وهي السنة التي توفي فيها جده عبد الكريم الفكون فسمي عليه، ومن أسلافه أبو علي حسن بن الفكون الذي عاش في القرن السادس الهجري وأوائل السابع، وقد ترجم له الغبريني في "عنوان الدراية" بقوله: «الشيخ الفقيه الكاتب الأديب البارع، أبو علي حسن بن الفكون، من الأدباء الذين تستظرف أخبارهم، وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر، وكأنهما أنوار الزهر، رحل إلى مراكش، وامتدح خليفة بني عبد المؤمن، وكانت جائزته عنده من أحسن الجوائز» (الغبريني، 1979، ص 334)

وكانت أسرة الفكون تتمتع باحترام واسع في قسنطينة؛ لتحالفها في البداية مع العثمانيين. ورغم أن جده كان يجمع بين العلم والتصوف، فإنه قد تعامل مع السلطات العثمانية، فذهب على رأس وفد قسنطينة إلى العاصمة، ولكن حصل ما أوجب فراره مع زميله الشيخ عبد اللطيف المسبح إلى زواوة، ثم أعيد إلى العاصمة وسجن، ثم رضيت عليه الدولة وأعادته مكرما إلى العاصمة. (الفكون، 1987، ص48)

وأصبحت أسرة الفكون منذئذ في خدمة الدين والدولة، فيها مشيخة الإسلام وإمارة الحج، وكان لها امتيازات اقتصادية ومعنوية لا حصر لها. وبعد وفاة الجد تولى ابنه محمد جميع وظائف والده من إمامة

وخطابة بالجامع الكبير في قسنطينة. وكان محمد الفكون، كما يقول عنه ابنه، فقيها ومتصوفا أيضا، يقوم الليل ويدرس العلم. ومن المعلوم أن محمدا أبا عبد الكريم قد توفي أثناء منصرفه من الحاج في مكان بين مصر والحجاز يقال له "المويلح"، وهذا ما يشير إليه العياشي في رحلته بقوله:« وكان نزولنا بالمويلح يوم الجمعة الثالث عشر من شوال، وهو الموفى عشرين ومن (يُنْيُه) من الشهور العجيمة، والله يجعل العاقبة خيرا. وعلى شاطئ البحر قرب منزل الركب، على مرقب قبر (سيدي محمد) والد الشيخ (عبد الكريم الفكون القسمطيني)، وعليه بناء وقد زرناه وتبركنا به وأقمنا هناك يومين» (العياشي، 2006، 286/1)

وكما تولى الأب وظائف الجد؛ فإن الابن هو الآخر قد ورث الوظائف نفسها، وأضاف إليها إمارة ركب الحج، وهذه الوظيفة الأخيرة تضمن لصاحبها وعائلته امتيازات معنوية واقتصادية كثيرة، وقد كان لعائلة الفكون زاوية يلتجئ إليها كل طالب للعلم، من داخل قسنطينة ومن خارجها، وقد تلقى الفكون تعليمه بمسقط رأسه قسنطينة إذ لم تذكر المصادر أنه غادرها لطلب العلم، «فقد كانت قسنطينة في نهاية القرن العاشر(16) تعيش على تراث عمر الوزان وعبد الكريم الفكون (الجد)، وعبد الرحمن الأخضري ويحيى الأوراسي. فكان تلاميذ هؤلاء هم الذين يرأسون حلقات الدرس في مساجدها... وكان التلاميذ يأتون إلى تلك المساجد من نواحي عديدة خاصة من زواوة والغرب (الجزائر) والأوراس ونقاوس» (القاسم، 2011، ص 58)

يقول أبو راس: «ولما دخلت قسمطينة، نزلت على محط رحال الأفاضل، ومنبع الفضائل ... أولي النهى والرسوخ، منهم القطب الكبير، الغوث الشهير، السيد عبد الكريم الفكون، وعبد الكريم هذا قال الشيخ أحمد بابا : هو تلميذ من ازدهى به الزمان وزان، الشيخ أبي عبد الله الوزان، والذي في نفح الطيب ما نصه: عالم قسمطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الجماهير وارث المجد كابر [كذا] عن كابر الشيخ عبد الكريم الفكون» (راس، 1986، ص 98)

2.2 مؤلّفاته

أمّا عن تآليفه، فقد ترك الفكّون مجموعة من المؤلّفات، المختلفة حجماً وموضوعات، منها المجلّدات، ومنها التّقييدات أو الكرّاسات، لكنّ أغلبها غير معروف إلّا ما ورد عنه في منشور الهداية، أو ما

ذكرته المصادر الأخرى، ولعلّ أشهر مؤلّفاته: (منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية)، الذي ألّفه بعد سنة 1045هـ، و(محدّد السّنان في نحور إخوان الدّخان)، انتهى منه سنة 1025هـ، و(تقييد) ذكر فيه مرضه الذي دام ثلاث سنوات (1025 -1028هـ)، ونظم أسماه (شافية الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض) أو (العدّة في عقب الفرج بعد الشّدّة) أوّله:

بك اللهم مبدي الخلق طرا توسّلي وفي كلّ أزماني عليك معولي

ومن المؤلّفات التي أشار إليها الفكّون في كتابه (منشور الهداية): مجموعة خطب – (تقييد) في كرامات الشّيخ الوزّان – (تقييد في مسألة حبس) – (نظم الدّرر على شرح المختصر) – (سربال الرّدّة في جعل السّبعين لرواة الإقراء عدّة) – كما أنّه وعد أبا العبّاس المقّريّ - في مراسلة بينهما - بوضح شرح على كتاب (إضاءة الدّجنّة في عقائد أهل الملّة) في علم الكلام.

يقول الأزهري: «وله تآليف منها نظم الشيخ المكودي في علم التصريف، وهو مجلد أجاد فيه كل الإجادة، وأحسن كل الإحسان، وأعطى البحث والنقل فيه حقهما، ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفظ المشروح ومعناه إلا تكلم عليه وأجاد، كما هو شانه في تأليفه، وكتاب "محدد السنان في نحر إخوان الدخان" ... وقال منها أن الدخان تنفر منه طبائع الحيوان البهيمي كالنحل، فكيف بأعقل الحيوانات. وله شرح على شواهد الشريف على الجرومية، وشرح الجمل للمجراد، وكتاب في حوادث فقراء الوقت، وغير ذلك. توفي عام ثلاث وسبعين وألف رحمه الله» (الأزهري، 1324، ص 232-233)

وقد سرد العيّاشي، وهو تلميذ (للفكّون)، وقد لازمه ولازم ابنه محمّدا من بعده، بل وذكر قصائد من ديوانه في المديح النّبويّ، بعض هذه المؤلّفات في قوله: «سيدي عبد الكريم الفكون؛ بفتح الفاء وضم الكاف المشددة، أخذ عن والده، وعن أبي زكرياء يحيى بن سليمان الأوراسي شرح نظم المكودي في التصريف، وشرح شواهد الشريف على الجرومية، والتزم عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد، وشرح جمل المجراد، وشرح مخارج الحروف من الشاطبية، وكتاب في حوادث فقراء الوقت» (العياشي، 2006، ص 282/2)

3.2 كتاب منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية

وبالحديث عن كتاب الفكون، فإن عنوانه الكامل هو "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، من خلال العبارة الأخيرة نستنتج أن المؤلف أراد به الكشف عن بعض أدعياء العلم والزهد والتّصوف، بينما هم في حقيقة الأمر دجالون وكذابون ومتشدقة ومبتدعة، موّهوا على العامّة؛ فاتّخذوهم شيوخاً وأولياء. وبذلك فالكتاب مهمّ في كونه يميط اللّثام، ويلقي الضّوء، على الأحوال الاجتماعيّة والدّينية والثّقافيّة في قسنطينة، في الفترة التي عاش فيها المؤلّف، والتي تمثل القرن السابع عشر،

ف «بينما كان ابن مريم محبذا للتصوف، واصفا لأحوال العلماء والمتصوفين، على ما كانت عليه؛ كان الفكون ناقدا للعلماء المنحرفين، والصلحاء والأدعياء، ناقما عليهم ما كانوا عليه من شعوذة وحب للدنيا، والمتاجرة بعقول العوام، وهكذا يصبح كتاب الفكون مكملا للبستان في وضع كثير من الأمور في نصابها» (القاسم، ت ج ث، 1998، ص 355/2)

كما يضم العديد من التراجم لشخصيات وعلماء وفدوا على المدينة أو كانت لهم بها علاقة، سواء خلال رحلة من الرحلات الحجازية وغيرها، أو من خلال طلب العلم، أو لفك نزاع من النزاعات التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى، وقد ضم الكتاب أيضا بعض القصائد والمقطوعات الشعرية، مما لا نعثر عليه في غيره من المصادر، وهي في الحقيقة قليلة إذا ما قارناها بالمراسلات التي جرت بين "الفكون" وغيره من العلماء؛ كرسالة "إبراهيم الغرياني القيرواني"، ورسالة "تاج العارفين العثماني"، أما أهم مراسلة فقد وقعت بينه وبين "المقري"؛ خاصة بعد الجواب الذي كتبه هذا الأخير عن سؤال لمحمد ابن باديس، عن إعراب آية لابن عطية

«وكانت لعبد الكريم الفكون مراسلات مع عدد من علماء عصره، منهم الجزائريون وغير الجزائريين، فقد ذكر هو أنه كان يتراسل مع سعيد قدّورة، وأحمد المقّري، ومحمّد تاج العارفين العثماني، وإبراهيم الغرياني التونسيّ وغيرهم ... وفي رسالة الفكون ما يشير إلى تبادل الرّسائل بينه وبين المقّري قبل ذلك، فقد أضاف الفكون إلى رسالته المسجوعة تسعة أبيات على وزن وقافية الأبيات التي ذيل بها المقري رسالته إلى الفكون، مع الاعتذار بأنه ليس من أهل هذا الفن» (القاسم، ت ج ث، 1998، ص 195/2)

3.تعلق الفكون بالنحو

1.3 تأثّره بجدّه وشيخيه:

«ورأيت الجد – رضي الله عنه – في النوم مرتين أو أكثر، وفي إحداها كأنّني بمدرسة دفنه قاصدا نحو بيت الصلاة منها، وكأنّه يخاطبني من قبره يقول: اقرأ، وناولني قرطاسا مكتوبا فيه بالأصفر، فتأملته فإذا فيه: قال فعل ماض، أو كلاما هذا معناه، لطول عهدي بالرؤيا، فانتبهت ووقع ببالي أنه إذن منه في الاشتغال بعلم النحو فاشتغلت به فحصلت لي فيه ملكة، والحمد لله» (الفكون، 1987، ص 52-53)

كان الفكون يحضر مختلف الدروس التي كان يلقيها المشيخة في قسنطينة، سواء في الكتاتيب أو في مدرسة العائلة، فقد كان والده متولّيا وظائف الخطابة والإمامة بالجامع الأعظم، كما أنّ جده اشتغل قبل ذلك مدرّسا بالجامع نفسه وكان له ميل لدراسة البيان وتدريسه للطلبة الوافدين على مدرسة وزاوية العائلة، وقد ساعده في ذلك مطالعته للكتب التي تتوفر عليها مكتبة والده، واستعداده الفطري لدراسة اللغة والبيان، والمطّلع على "منشور الهداية" يعرف أنّ الفكّون قد تأثّر بشيخيه "محمد بن راشد الزّواوي" و"محمّد التّواتي"، وقد ترجم لكليهما فقال عن التواتي المتوفي بالطّاعون في باجة تونس سنة (1031هـ / 1621م) أنه «الأستاذ النّحرير النحويّ آخر المتكلّمين لسان حجّة المسلمين، أبو عبد الله محمد بن مزيان التّواتي لقبا، أصله من المغرب من قبيلة الرّواشد، وانتقل إلى جبل زواوة ... وكانت شهرته بقسنطينة وبها انتشر علمه وأقبلت إليه الطّلبة وانتفعوا به وكقر بحثه وعلت عارضته» (الفكون، 1987، ص 57-58)

وفي ترجمته لشيخه الثاني أبي عبد الله محمّد بن راشد الزّواوي يقول: «فمن ذلك صاحبنا الفقيه الفهيم النّحويّ أبو عبد الله محمّد بن راشد الزّواوي، قدم من زواوة أيّام الشّيخ المذكور (يقصد التّواتي) طالبا منه قراءة المرادي، فنزل علينا بالزّاوية المشهورة بأولاد الفكّون ... ووجدني في حداثة السّنّ لم أجمع القرين أو قريب عهد بجمعه» (الفكون، 1987، ص 105-106)

ولما أن أراد الله فتح البصيرة في فنّ النّحو لازمته لإقراء الكتاب له ولمن يناظر عليه، فكنت أستحسن ذلك وأصغي لأشعار شواهد الفن، فما هو إلا وقد حصل لي ذوق ما، فكان هو بعد ذلك

يعيد عليّ التّقرير بعد أن يقرّر لأصحابه، وكنت قبل ذلك قرأت وحدها ثمّ بخالد عليها ثمّ بجبريل عليها» (الفكون، 1987، ص 106)

«فلمّا رأى منّي الحرص والالتفات الكلّي إلى هذا الفن صار يحثّني على الحضور معه في درس شيخنا التّواتي، وكنت قبل ذلك لا أحضره بل ولا أبغيه ولا أعرفه كلّ المعرفة، ومن جهل شيئا عاداه، ظنّا منّي أنّ النّحو هو ما قرأته من الآجروميّة وقام فعل ماض وزيد فاعل، فصرت أحضر معه مجلس الدّرس المذكور واجلس في أخريات القوم» (الفكون، 1987، ص 106-107) أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

2.3 ذكر المناظرة بين ابن راشد والتواتي

ذكر الفكّون في كتابه المذكور مناظرة جرت بين صاحبه محمّد ابن راشد الزّواوي، وشيخه محمّد والتواتي «وكان عمدة نظر صاحبنا "ابن بابشاذ" على الجمل وعمدة نظر الشيخ "سراج التسهيل"، فلم يتواردا على مورد واحد، وكثيرا ما يلجئه الأمر، أعني الشيخ، إلى سبه الصاحبَ وإخراج سيئ القول له، وربما يتكلم في المجلس من كلام السفهاء لما يحمله الغضب والانزعاج حتّى لا يفيق بما يصدر منه» (الفكون، 1987، ص 107-108)

«لله درّهم أجمعين، كانت سيرتهم محمودة، وآثارهم مشهودة، وسقطاتهم معدودة، ومع هذا أنا بينهم ملقى لا في العير ولا في النفير، ولا أشعر الآن بالصّواب مع من هو منهما لقصور باعي إذ ذاك عن إدراك البحث والتّفطّن له، إلّا أنّني استشعرت من الشّيخ، بعد مخالطتي له، أنّه كان لا يحتمل البحث ولا يرضاه ويضيق ذرعا» (الفكون، 1987، ص 108)

3. 3 – التّحدّي والعزيمة

ومن العوامل التي ساعدت الفكّون، وهو لا يزال في مرحلة التّعلّم، يقبل على تعلّم النّحو والميل إليه، تلك العزيمة التي لا تسمح له بتقبّل الفشل مهما كان نوعه، سيما وأنّه كان من العائلات ذات

السّمعة والجاه في قسنطينة، ما جعله يأخذ بعض الأمور العابرة مأخذ الجدّ، على الرّغم من حداثة سنّه حينها، وسنذكر هنا حادثتين لهما صلة بميل الفكّون إلى النّحو، الأولى تتعلق بما جرى له مع الفقيه المالكي التّونسيّ أبي إسحاق إبراهيم الفلاري، (ت: 1039هـ/1629م)، الذي وفد على قسنطينة، وكان – حسب رواية الفكّون – «يدّعي معرفة النّحو وأنذه له فيه اليد الطّولى، واستطال به على أهل البلد، قسنطينة، لما يرون له من قوّة القريحة فيه» (الفكون، 1987، ص 110)

وملخص الحادثة أنّ الفلاري المذكور سأل الفكّون (وكان مارّا بالقرب منه) عن الجامع بين قوله تعالى: **(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ)** (آل عمران: 97) وقول جرير في قصيدته التي يهجو فيها بني حنيفة (جرير، د.ت، ص 545/1): [البسيط]

كَانَتْ حَنِيفَةُ أَثْلاثاً فَثُلْثُهُمْ مِنَ الْعَبِيدِ وَثُلُثٌ مِنْ مَوَالِيها

وقد ذكر الفكّون أنّه لم يعرف الجواب عن هذه المسألة نظرا لقلّة زاده المعرفي في هذا المجال، وصغر سنّه، فضلا عن كثرة المسائل النّحويّة وشواهدها، ورغم ذلك إلّا أنّه شعر بأنّ القوم من جماعة الفلاري نظروا إليه نظرة استصغار واحتقار، فاشتدّ به الخجل وصار الفلاري يؤنّبه على جهله بالنّحو والقواعد، والمسألة المذكورة تشير إلى عطف بيان بين **(آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) (مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ)**ومدى بيان الجماعة بالواحد، والشّاهد في الوجه الثّاني الذي ذكره المفسّرون مثل الزّمخشري الذي ذكر ما يلي: «ويجوز أن يراد: فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم وأمن من دخله؛ لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثّلاثة والأربعة، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات ... ونحوه في طيّ الذّكر قول جرير» (الزّمخشريّ، 2009، ص 184)

ولم ينته الأمر عند انصراف الفكّون خجلاً، بل إنّه بحث محاولاً ردّ الاعتبار لنفسه أمام جماعة الفلاري، الذي أحسّ بإهانته له، لكنّه لم يأت بالجواب المذكور آنفاً بل أخذ ينظر في ما ذكره ابن هشام في شواهده وقواعده، ليجد نفسه أمام هذا البيت ليوسف بن أحمد الدّبّاغ الصّقلّي (هشام، 1964، ص 13): [الخفيف]

إِنّ هِنْدُ الْمَلِيحَةُ الْحَسْنَاءَ وَأَيَّ مَنْ أَضْمَرَتْ لِخِلٍّ وَفَاءَ

وكان ابن هشام قد فسّر هذا البيت واستخرج معناه وأعربه بقوله: «فإنّه يقال: كيف رفع اسم إنّ وصفته الأولى؟ والجواب: أنّ الهمزة فعل أمر، والنّون للتّوكيد، والأصل إينّ بهمزة مكسورة، وياء ساكنة للمخاطبة، ونون مشدّدة للتّوكيد، ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع النّون المدغمة ...» (هشام، 1964، ص 13) المهم أنّ الفكّون شعر بأنّه وجد ضالّته التي سيواجه بها غرور الشّيخ الفلاري، فحفظ البيت واستظهر ما فيه «وأسرع إلى المجلس المذكور، ولكن ليس في نفس اليوم، وعند حضوره سأله الفلاري الإجابة ووبّخه بعدم معرفته أيّ شيء وتطاول عليه من جديد، ولكنّ الفكّون طلب منه أن يجيبه هو أوّلا عن معنى البيت (إنّ هند إلخ) وإعرابه، فبهت الفلاري واحمرّ واصفرّ وألجم ولم يجد جوابا، واكتشف أمره بين أصحاب المجلس، وأخذ يتضاءل في نفسه» (القاسم، شيخ الإسلام، 2011، ص 121)

وما يهمّنا هنا أنّ هذه الحادثة جعلت الفكّون يدرس شواهد ابن هشام وقواعده ويراجعها بل ويحفظ الشّواهد الشّعريّة ويتقن الإعراب ويحفظ أقوال النّحاة ولعلّ سؤال الفلاري لم يكن بغرض الاستصغار بقدر ما كان دفع الفتى إلى المزيد من الدراسة والإتقان وهو ما حصل في نهاية المطاف.

أمّا الحادثة الثّانية فهي أقل وطأة على نفس الفكّون، لكنّها كانت دافعاً ثانيا ومحفّزا له للتّوجّه نحو دراسة النّحو والتّبحّر فيه، وقد حصلت له مع أحد الطّلبة الذين وفدوا على قسنطينة بقصد قراءة النّحو على الشّيخ التّواتي، واسمه أحمد بن خليفة الزّواوي، وكان قرأ ابن الحاجب والمكوديّ، يقول الفكّون: «ونزل علينا بالمدرسة المذكورة مجاوراً لصاحبنا ابن راشد، وكان ذات يوم ألقى عليّ وأنا حديث السّنّ بينهم، إعراب: "عرفتُ زيداً، أبو من هو؟" فخجلت من ذلك، وأعربت بعضه ولقّنني صاحبنا ابن راشد بعضه» (الفكون، 1987، ص 109-110).

4.مسألة ابن عطيّة

1.4سؤال ابن باديس عن المسألة:

قبل الدخول في نصّ المسألة لابدّ من الإشارة إلى أنّ عائلة ابن باديس مشهورة في قسنطينة، وقد ترجم الفكّون في منشور الهداية لبعض الباديسيّين وهم على التّوالي القاضي الخطيب أبو العبّاس أحمد (حميدة) بن باديس الذي وصفه بقوله: «وهو من بيتات قسنطينة وأشرافها، وممّن له الرّياسة والقضاء

والإمامة بجامع قصبتها، وخلف سلفٍ صالحين علماء حازوا قصب السّبق في الدّراية والمعرفة والولاية، وناهيك بهم من دار صلاح وعلم وعمل، وكيف وصاحب السّينيّة وشرح مختصر ابن هشام ينبئك عمّا لصاحبها من كمال المعرفة والفطنة» (الفكون، 1987، ص 57) ومن الواضح أن الفكّون سمع بأحمد المذكور ولم يلتق به، لأنّ هذا الأخير توفّي سنة 969هـ/1561م

ويحي ابن باديس ابن السّابق، وقد التقاه عبد الكريم الفكّون وترجم له، وذكر أنّه كان صديقا لجدّه لأمّه قاسم الفكّون، وتولّى منصب باش عدل في قسنطينة، يقول في ترجمته: «وممّن لقيناه الفقيه أبو زكريّاء يحي ... كان – رحمه الله – حييّا ذا خلق حسن، كثير المداعبة والهشاشة، كثير التّواضع للصّغير والكبير والرّفيع والحقير، سالم الصّدر من نفاق أهل عصره، كثير القراءة لدلائل الخيرات» (الفكون، 1987، ص 68)

أمّا الثّالث والرّابع فهما ولدا يحي المذكور، محمّد وحميدة بن باديس، والذي يهمّنا هنا هو محمّد، ذلك أنّه هو من ذكر المسألة النّحويّة وطلب الجواب عنها سواء من الفّكون أو من المقّريّ ومن المعلوم أنّ محمّدا ابن باديس قرأ على الفكّون بعد ارتحال الشّيخ التّواتي عن قسنطينة (حوالي 1023هـ)، وأصبح من أكابر موثّقي البلد، وقد التقى بأحمد المقّري في مصر وجاء بأخباره إلى شيخه الفكّون، وفي منشور الهداية نماذج من مراسلات الفكّون والمقّريّ ليس هذا محلّ دراستها.

وبالنسبة للمسألة المذكورة، فقد جاء في منشور الهداية ما نصّه: «وكثيرا ما يكاتبني بالمسائل وأجيبه عنها، وكتب لي مرّة إشكال ما وقع لابن عطيّة في إعراب **(وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ)** (البقرة: 150)، فأجبته عنه، فاتّفق أن رفعه معه لمصر وعرضه على أبي العبّاس أحمد المقّريّ يطلبه في الجواب، وما أنصف – وفّقه الله – وأجاب بما سنذكره بعد – إن شاء الله –» (الفكون، 1987، ص 210)

أمّا نصّ السّؤال الذي رفعه ابن باديس إلى الفكّون (وهو في قسنطينة) ثمّ إلى المقّريّ (وهو في مصر) فهو قوله: «سيّدي، بلّغكم الله الآمال، ونفعكم بصالح الأعمال، واذهب عنكم ما تجدونه بفي انفسكم من الآلام (يشير إلى المرض الذي أصاب الفكّون حوالي 1025هـ) وعافاكم من جميع الأسقام، المقصود منكم الإفادة فيما عرض لنا من الإشكال في مسألة، وهي ما أعربه الشّيخ ابن عطيّة في قوله

تعالى: **(وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ)**، ونصّه: ولأتمّ: عطف على قوله: ليلاً، وقيل هو مقطوع في موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمر بعد ذلك، التّقدير: لأتمّ نعمتي عليكم عرفتكم قبلتي ونحوه، هذا إعرابه، وتبعه عليه صاحب الجواهر (يقصد الثّعالبي)» (الفكون، 1987، ص 227)

2.4 جواب الفكّون عن المسألة:

أورد ابن باديس بعد سؤاله المذكور رأيه فيما ذكره ابن عطيّة والصّفاقسي شارح الشّاطبيّة، حول المسالة، وأنّه غير مقتنع بذلك، حيث أورد "ابن عطية" في "المحرر الوجيز" في تفسير الآية 150 من سورة البقرة **(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)** ما يلي: «وقوله تعالى **(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)** الآية، تحقير لشأنهم وأمر بإطراح أمرهم ومراعاة أمره، وقوله **(وَلِأُتِمَّ)** عطف على قوله **(لِئَلَّا)**، وقيل: هو مقطوع في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر بعد ذاك، والتّقدير لأتمّ نعمتي عليكم عرفتكم قبلتي ونحوه» (عطية، 2001، ص 226/1)

وما يهمّنا هنا هو رأي الفكّون صاحب منشور الهداية، الذي خاطبه ابن باديس بقوله: «ويظهر في إعرابه وجه آخر لا أدري هل تجيزه لي أم لا، وهو أن يكون متعلّقا ب"يهتدون"، فإن اقتضاه المعنى فهو صحيح من جهة التّعلّق على ما يظهر لي بفهمي القاصر، جوابكم الكافي ونقلكم الوافي، والله الشّافي، تؤجرون وترحمون، والسّلام عليكم ورحمة الله» (الفكون، 1987، ص 228)

ومن الواضح أن الفكّون قد بذل جهدا كبيراً في الرد ابن باديس ليس لكونه عاجزا عن الإجابة، بل لكون المرض لازال ملازما له، وهو المرض الذي دعاه على تأليف ديوان في المديح النّبويّ على حروف المعجم (ذكر منه العيّاشي في رحلته أربع قصائد في كل منها خمس وعشرون بيتا)، وهذا طرف من نصّ الفكّون: «فاعلم أنّ ظاهر ما نقلتموه عن ابن عطيّة وتابعه (الثّعالبي) مقتض لما فهمتموه، وهو غير جار على القواعد إذ المبتدأ هو الاسم أو ما في تأويله معرّى عن العوامل اللّفظيّة غير الزّائدة الخ ما رسموه به، وهذا – وإن صحّت اسميته بالتّأويل – فهو معمول لعامل لفظي وادعاء زيادته غير صحيح، ثمّ تقدير الخبر

عنه بما قدّره لا يلائم المبتدأ بعد السّبك لنبوّه عنه، والظّنّ بابن عطيّة انّه لم يرد هذا الظّاهر من الكلام، وإنّما التّأويل فيه أنّه قصد بالابتدائية ابتداء الكلام على معنى أنّه لا تعلّق له بما قبله، كما هو في الإعراب الأوّل، وقصد بالخبر خبر الكلام في المعنى، بمعنى أنّه تمام فائدته هو ذاك ...» (الفكون، 1987، ص 228).

3.4جواب المقّري عن المسألة:

أحببنا الإشارة هنا إلى جواب أبي العبّاس المقّريّ عن المسألة لسببين جوهريّين، أوّلهما كون الجواب مذكوراً في منشور الهداية، وناقله هو الفكون نفسه، وثانيهما صبغة التّهكّم التي فهمها الفكّون من جواب المقّريّ (الذي لا نعلم نيّته بالضّبط)، وستتّضح الرؤيا عند ذكر مقطع من الجواب، ومن الواضح أنّ المقّري يشيد بعلم الفكّون، كيف لا وقد ذكره في مؤلّفه الجليل "نفح الطّيب"، ووصفه بقوله: «ومنها كتاب وافاني من علم قسمطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الأكابر، ووارث المجد كابرا عن كابر، المؤلف العلامة، سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون – حفظه الله –» (المقّريّ، 1968، ص 480/2) وقد أشار الفكّون في منشور الهداية إلى أنّه ينوي شرح منظومة المقّريّ المسمّاة "إضاءة الدّجنّة في عقائد أهل الملّة" ولا ندري هل أسعفه الحظّ في ذلك أم لا، وهذا نصّ الجواب الذي كتبه المقّري لابن باديس بعد اطّلاعه على جواب الفكّون:

«الحمد لله وحده، صلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، لما دخلت من أبواب ما بمحوله من الجواب، وأمعنت النّظر في وصف بانيه الرّافل في أثواب حلل الصّواب، ألفيته والله مبنيا على قواعد التّحرير، منميا إلى مقاصد التّحرير، دالّا على تبحّر صاحبه في الفنون، وتصديقه في علماء قطر المغرب الظّنون، فلو رآه "ابن قنبر" و"الخليل" لاعترفا بأن فيه "شفاء الغليل"، أو "الأخفش" لأبصر، ونكص عن معارضته واقصر، أو "الجرمي" و"الفرّا" لتكعكعا من مباراته وفرّا، أو "الزجاج" لكسر قوارير تحقيقه، أو "الفارسي" لترجّل عن أفراس تدقيقه، أو "المازنيّ" لعثر به على خبايا "الكتاب"، ولم يكن بالملوم، وتخلّص من قصة مصاب ظلوم، أو أبو علي الشلوبين لاكتسى بسببه حلل الفراسة، أو "ابن خروف" لأطاب وما أطال في الشرح مراسه، أو "الآبدي" لتاب دبه ما خشي اندراسه، أو "أبو موسى"

لوشح به "الكراسة"، أو "ابن الضايع" لوجد لقطة البضائع، أو "ابن عطية" لقضى من أسرار العربية أوطاره، أو "ابن عصفور" لفاز بالحظ الموفور الذي أعيى مطاره ...» (الفكون، 1987، ص 230).

فمن خلال ما سبق نستشفّ أنّ المقّريّ أراد ممازحة صديقه الفكّون ببعض العبارات المسجوعة والمعروفة لدى أصحاب المدرسة الأندلسيّة، الذين افتتنوا بالتّزويق في الألفاظ والعبارات، غير أنّ الفكّون المعروف بالجدّ والصّرامة، والذي أنهكه المرض فترة ليست بالقصيرة، استثقل الجواب المذكور، وشعر بأنّ المقّريّ يحطّ من قيمته لدى "ابن باديس"، وهذا ما جعله يردّ ردّا قاسيا وينقد طريقته في الجواب، بل وأضاف إلى ذلك جوابا شبيها بجواب المقّريّ، ولا ندري هل اطّلع هذا الأخير على ذلك كلّه أم لا، وعلى العموم فإنّ الأبيات التي ذكرها الفكّون قد ضمّنها المقّري مؤلّفه المذكور. ومما يؤكد طابع المزاح ما قاله المقري في حق عبد الكريم الفكون، وذلك في قوله في تتمّة الجواب عن المسألة المذكورة: «وبالجملة فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني [لفكون] هضاب العلم والوقار والسكون، لازال الخلف منهم يحيون مآثر السلف.

ودام عبد الكريم فردا في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز خصل سبق وصار في ذا الزمان آية
والله يبقيه ذا سمو مخلد الفضل والدراية
بجاه خير الورى المرجى من خصه الله بالعناية
عليه أزكى الصلاة تترى لدى ابتداء وفي نهاية»

(الفكون، 1987، ص 231)

وفي حقيقة الأمر أن المقّريّ لم يجب عن المسألة إجابة واضحة، غير أنّه يؤيّد ما ذكره الفكّون في جوابه المذكور ولا يعقّب عليه إلّا بتلك العبارات المذكورة آنفاً من قبيل الممازحة لا أكثر، والدّليل على تأييد المقّري لجواب الفكّون قوله في ختام الرّسالة المذكورة، وهي قوله: «وهذا الجواب منّي وغن كان كالصّدى، فلا مندوحة عنه لمن بلغ الإنصاف مرصداً، وحسب الواقف على جواب العالم المذكور اقتفاء أثره، والاستضاءة بنور شمسه وقمره، وقد خططت هذه الحروف عند قدومي من الحجاز الشّريف مع

اشتغالي بالسّلام، وأجدر أن يرتفع بها عنّي إن أخطأت الملام، والله يجعلنا ممّن نظر إليه الواقف بالعين الكليلة، وجعل بعون الله في التّدبّر الختم دليله، انتهى» (الفكون، 1987، ص 231-232)

5. خاتمة:

يعتبر عبد الكريم الفكّون من أعلام قسنطينة في القرن السّابع عشر (11هـ)، وكان له دور سياسي وحضاري في المدينة، سيما وأنّه من عائلة معروفة بالعلم وتولّي الوظائف الحكوميّة لدى العثمانيّين، وقد ورث عن أسلافه الزّاوية المعروفة بزاوية آل الفكّون، والتي تعتبر منارة للعلم في العهد العثماني، كما ورث عن والده إمارة ركب الحجّ، وقد ترك بعض المؤلّفات في موضوعات متعدّدة من أشهرها "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية" وهو أقرب إلى السّيرة الذّاتيّة رغم أنّ الغرض منه كشف أولئك الذين لبّسوا على النّاس أحوالهم وادّعوا العلم والولاية وهم ليسوا كذلك، والغرض من البحث هو إبراز بعض الومضات التي تشير إلى اهتمام الفكّون بالنّحو وحرصه على تعلّمه وتعليمه في حاضرة قسنطينة، ومن نتائجه ما يلي:

* كان للرؤيا التي ذكرها الفكّون بخصوص جدّه دافعا له لتعلّم النّحو، وهو يذكرها بكثير من الفخر والاعتزاز لأنّه يعتبر جدّه المسمّى باسمه قدوته في الحياة

* كان لدروس محمّد بن راشد الزّواوي الذي يسمّيه الفكّون (صاحبنا) ومحمّد التّواتي الذي يعتبر (شيخا له) بالغ الأثر في حرص الفكّون على تعلّم النّحو.

* ساهمت بعض الحوادث العابرة على ميل عبد الكريم الفكّون إلى النّحو في سنّ مبكّرة، من ذلكم ما جرى له مع الفلاري التّونسي وحسن بن خليفة الزّواوي.

* ذكرت في منشور الهداية بعض المسائل النّحويّة – رغم قلّتها – من ذلك على سبيل المثال ما ذكره الفلاري بخصوص العلاقة بين الآية 75 من سورة آل عمران وبين جرير.

* على الرّغم من براءة السّؤال لدى محمّد بن باديس بخصوص مسألة نحويّة عابرة وردت في تفسير ابن عطيّة إلّا أنّها كانت سببا في التّعريف بمكانة الفكّون لدى معاصره شهاب الدّين المقّري الموجود بالمشرق العربيّ.

5. قائمة المراجع:

1 – ابن عطية عبد الحق بن غالب (2001)، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز* (المجلد 1)، دار الكتب العلمية، بيروت

2 – ابن هشام جمال الدين. (1964). *مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب* (المجلد1) دار الفكر، دمشق

3 – أبو راس الجزائري محمد (1986)، *فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته*، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

4 – الأزهري محمد البشير ظافر (1324هـ)، *اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة*، مطبعة الملاجئ العباسية.

5 – جرير. (د.ت). *ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب* (المجلد3)، دار المعارف، القاهرة

6 – الزّمخشريّ جار الله. (2009). *الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجه التّأويل* (المجلد 3) دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت

7 – سعد الله أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (المجلد 1).: دار الغرب الإسلامي. بيروت

8 – سعد الله أبو القاسم. (2011). *شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، داعية السلفية* (المجلد 1)، عالم المعرفة. الجزائر

9 – العياشي أبو سالم (2006)، *الرحلة العياشية* (المجلد 1)، دار السويدي للنشر والتوزيع. أبو ظبي

10 – الغبريني أبو العباس (1979)، *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية* (المجلد 2). دار الآفاق الجديدة.بيروت

11 – الفكون عبد الكريم. (1987). *منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية* (المجلد 1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت

12 – المقّريّ أبو العبّاس (1968)، *نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب* (المجلد 1). دار صادر بيروت، لبنان.